

نفحات القرآن

[44] وجودها يحتاج إلى فيضه في كل لحظة وآن (ان تَوَقَّف لحظة تَهْدِّمت الهياكل) .
أجل ، إنَّ الغني في عالم الوجود هو ذاته المقدَّسة ، ولمَّا كان البشر - وهم تحفة عالم
الخلق - بحاجة إليه في كل وجودهم فإنَّ حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج إلى بيان ،
ولذا فإنَّ الآية تضيف في ذيلها : (وإِنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) وبملاحظة انَّ التعبير
أعلاه يدلُّ على الحصر - وفق القواعد الأدبية - فإنَّ مفهومه ليس إلَّا هذا ، وهو إنَّ الغني
المطلق هو الذات المقدَّسة سبحانه ، ولو قسَّمنا البشر إلى (فقير) و (غني) فإنَّ
هذا أمر نسبي غير حقيقي . وبتعبير آخر ، انَّ الموجودات كلّها عبارة عن الفقر والحاجة ،
وانَّ ذات الله المقدَّسة عبارة عن الغنى والإستغناء ، وهذا هو أوَّل الكلام وآخره . هو لا
يحتاج - إذن - إلى عبادتنا وطاعتنا أبدًا ، كما لا يحتاج إلى مدح وثناء ، بل انَّ طاعتنا
وعبادتنا له ومدحنا وثناءنا عليه هي جزء من إحتياجنا إليه وسبب لتكاملنا المعنوي
والروحي ، حيث انَّنا كلّما إقترنا من منبع النور فازَّنا نزداد نورًا ، وكلزما إقترنا من
المصدر الفيّاض ذاك فازَّنا نستفيد أكثر ، وبتمثيل ناقص انَّنا كالنباتات والأشجار التي
تستقبل نور الشمس دون أن تحتاج إليها الشمس . انَّ فهم هذه الحقيقة يقدِّم للبشر درس
التوحيد حتَّى لا يخضعوا إلَّا إليه ولا يُطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأن يمدُّوا يد
الحاجة إليه لأنَّه (غني وكريم ورحيم وودود) . انَّ الإنتباه إلى هذه الحقيقة له الأثر
البالغ في تربية الإنسان ، فمن جهة يخرج من حالة الغرور وعبادة النفس ، ومن جهة أخرى
يحرِّره من جميع القيود ويجعله غنيًّا عن سواه ، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا يضيع في
عالم الأسباب ، وسينظر إلى مسبِّب الأسباب على الدوام . وهنا لابدَّ من الإلتفات إلى أمرين :